قصيدة النثر بين القبول والرفض

شمس الدين درمش - الرياض
صابرين شمردل - القاهرة

شهد عصرنا تغيرا كبيرا في نواح شتى من الحياة، ومن الجوانب التي شهدت تغيرا فنون الأدب، فقد طرأت في أدبنا فنون جديدة، وتغيرت دلالات فنون أخرى، ومما أصابه التغيير مفهوم الشعر.

فقد كان الوزن والقافية شرطين من شروط الشعر، وإن يكن الوزن والقافية لا يضمنان دخول الكلام الموزون المقفى عالم الشعر بل عالم النظم.

وقد جاء ما سمي بالشعرالحر أو شعر التفعيلة ليقدم إضافة جديدة إلى ما يعنيه مصطلح الشعر.

وقد لقي هذا المفهوم الجديد معارضة من عدد كبير من الأدباء والنقاد ثم استقر الأمر على قبوله، بل شاع شعر التفعيلة حتى كاد أن يطغى لدى بعض الشعراء على الشعر الموزون المقفى.

واليوم يثير مصطلح «قصيدة النثر» جدلا واسع النطاق في الساحة الثقافية العربية بين معارض ومؤيد، فبينما يرى البعض أن هذا النوع من القصائد النثرية فتح الباب - على مصراعيه - لكتابات أكثرها غث، يسطرها جيل كامل من «المتشاعرين» العرب الجدد، يرى البعض الآخر أن النثر هو التطور المنطقي للشعر، وأن الموسيقى والأوزان لا تكتسب «قداسة» من أي نوع بمجرد أنها من وضع الأسلاف!

وفي حين يحمّل المعارضون «قصيدة النثر» مسؤولية تدهور مكانة الشعر العربي المعاصر لتصبح الرواية - في تقديرهم - هي «ديوان العرب».. يؤكد المؤيدون أن «قصيدة النثر» فتحت آفاقا جديدة للشعر في لغة الضاد، وأن مسؤولية الانحدار الشعري - إن جاز التعبير - تقع على عاتق المحافظين المنغلقين.

المواجهة الساخنة التالية بين مؤيدي «قصيدة النثر» ورافضيها، تضع النقاط على الحروف وتفسح المجال أمام الجميع بآرائهم على قدم المساواة، والقارئ في النهاية هو الحكم.

❖ الشاعر عبد المنعم يوسف عواد من المهتمين بالكتابة عن قصيدة النثر ودراستها دفاعا عنها ، وقد شارك ببحث في مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالقاهرة «تقريب المفاهيم » سنة ٢٠٠٣م ، بعنوان (قصيدة النثر من منظور إسلامي) ، فكان من الطبيعي أن نتجه إليه ونسأله عن سر دفاعه عن قصيدة النثر، فيقول :

نعم .. أكثر الناس يستغربون دفاعي عن قصيدة النثر برغم كوني عضوا في رابطة الأدب الإسلامي ، وهذا وحده ينفي عن الرابطة تهمة إلزام أعضائها برأي فني واحد في قضايا الأدب ما داموا جميعا ملتزمين بالمنظور الفكري للتصور الإسلامي للأدب والإنسان والحياة ..

ويستطرد موضحا وجهة نظره الفنية فيقول :

قصيدة النثرالأدبية الجميلة منيت بسوء السمعة السمعة من قبل الاتجاهات التي تميل إلى المحافظة والتقيد بقيم الأدب الأصيلة ، ولهذه الاتجاهات مبرراتها المقبولة لموقفها هذا من قصيدة النثر ، ويعزو ذلك إلى ممارسات كتاب قصيدة النثر في إغراق كتاباتهم بفيض من الإشارات

الجنسية الفجة تحت مسمى: الكتابة بالجسد وللجسد ..

وهو مع موافقته لرفض مثل هذا المضمون لقصيدة النثر يخالف رافضي قصيدة النثر من حيث الشكل الذي يخلو من الإيقاع الخارجي ، فهو يذهب إلى القول بأن انعدام الوزن والموسيقى الخارجيين من الكلام لا يخرجه عن دائرة الشعر ، كما أن وجودهما - وحدهما - لا يصنعان الشعر .

ويفرق الشاعر عبدالمنعم عواد بين كتاب قصيدة النثر الحقيقيين وبين من وصفهم بأدعياء قصيدة النثر .

❖ **أما الشاعر حلمي سالم** فيقول: من المؤسف أن كثيرا من محافظي الحياة الشعرية الراهنة يرهبون الشعراء المجددين بجملة الأعرابي القديم «إذا كان هذا هو الشعر فكلام العرب باطل»، وهو الإرهاب الذي يفرض على الشعراء المحدثين ردا من نوعه قائلين: « نعم، كلام العرب باطل، إذا كان يرهن شرعية الجديد بمضاهاته القديم». صحيح أنه قد استغل الركيكون والضعفاء قصيدة النثر وركبوها لتغطية فقرهم وقلة رزقهم الجمالي، لكن هذا هو عين ما حدث في كل تجربة وكل حركة وكل عصر، فلو أن أصحاب قصيدة النثر انتهجوا نفس السبيل «مقارنة جيد قصيدة النثر برديء قصيدة العمود والتفعيلة » لجاءت النتائج فادحة وفاضحة، قصيدة النثر ليست مستوردة إنها تطور طبيعي وصحي في سياق الجديد والتجريب وكسر الجمود الثابت، كما أنها ذات جذور تاريخية قديمة من الفراعنة والبابليين والآشوريين، مرورا بمتصوفة الإسلام ونشيد الإنشاد، وصولا إلى أمين الريحاني وجبران وحسين عفيف ومحمد منير رمزي وغيرهم.. وسيكون من العبث أن تدخل قصيدة إخوانية عمودية أو تفعيلية تافهة «من العصر الجاهلي أو الإسلامي أو الحديث » نطاق الشعر، بينما يخرج منه شعر نثري للنفري.

المجاز والموسيقى شرطان للشعر لكن المجاز عديد وكثير ومتنوع، وليس مقتصرا على المجاز اللغوي البلاغي القديم والعقيم، بل يتجاوزه إلى مجاز المعنى ومجازكسر المجاز، كما أن الموسيقى أوسع من «الوزن الخليلي» الذي يعتبر إحدى صيغ أو هيئات هذه الموسيقى - إن وزنية القصيدة ليست علامة على شعريتها، وفي المقابل فإن نثرية أو لا وزنية القصيدة ليست علامة على عدم شعريتها، المحاكمة يجب أن تكون متبادلة.

❖ **ويقول الشاعر عبدالمنعم رمضان** : في تقديري إن «قصيدة النثر» أكسبت الشاعرية العربية زخما جديدا، مثلما فعلت ذلك من قبل أشكال أخرى منها «شعر التفعيلة» وسواه، وإذا كانت قصائد بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة قد حوربت، فمن الطبيعي أيضا أن تحارب القصيدة الجديدة، فكل قديم يعادي الجديد والبقاء للأصلح.

ويقول عن الالتباس في القصيدة العربية الجديدة بين الشعر والنثر :

لقد دخل الالتباس على اسم الشعر من الفجوة التي أحدثتها قصيدة

الشاعر عبدالمنعم عواد:

■ **قصيدة النثر الأدبية منيت بسوء السمعة لإغراقهابفيض من الإشارات الجنسية الفجة تحت مسمى الكتابة بالجسد وللجسد !!**

الشاعر حلمي سالم:

■ **استغل الركيكون والضعفاء قصيدة النثر وركبوها لتغطية فقرهم وقلة رزقهم الجمالي، لكن هذا هو عين ما حدث في كل تجربة وكل حركة وكل عصر.**

الشاعر عبد المنعم رمضان:

■ **قصيدة النثر أكسبت الشاعرية العربية زخما جديدا مثلما فعلت ذلك من قبل أشكال أخرى منها شعر التفعيلة.**

الشاعر د. حسن فتح الباب

■ **المشكلة تكمن في المصطلح، لأن كلمة قصيدة تعني الشعر وهو جنس أدبي مغاير للشعر بكل المقاييس، وقصيدة النثر نوع أدبي قائم بذاته، وليس شعرا على الإطلاق.**

النثر، ومن الفجوة ذاتها تعين على النص الجديد أن يستقي من منظومة مفاهيم وأعراف جديدة (التخطي، والتجاوز، والمغامرة، والاختلاف). وبدا كما لو أن قصيدة النثر هي التجلي الشكلي لهذه الطروحات، وأن إعادة تعريف الشعر التي جرى التنظير لها ليست هي الهدف من تلك المغامرة، بل هي مجرد محطة عابرة في سفر طويل، ومسألة إعادة تعريف الشعر العربي أصبحت ضرورة حتمية.

❖ **ويقف الشاعر الكبير د. حسن فتح الباب موقفا وسطا يعترف فيه بقصيدة النثر ولكن يضع أمامها شروطا لا تستطيع المرور إلا بها. فيقول:**

في تقديري إن قصيدة النثر نوع أدبي معترف به، ومن الظلم نفي وجودها من الساحة الشعرية العربية المعاصرة.

ولكن المشكلة تكمن في المصطلح، لأن كلمة (قصيدة) تعني الشعر وهو جنس أدبي مغاير للنثر بكل المقاييس، وأنا مع قصيدة النثر إذا توافرت فيها الشروط الفنية الآتية:

أولا : التكثيف بمعنى الإيجاز في الفكرة أو الرؤية أو الألفاظ.

وثانيا : عنصر الخيال.

وثالثا : قدر من الشاعرية والوزن.

ولو توافرت لـ «قصيدة النثر» هذه الخصائص، فهل تستحق في تقديركم صفة الشعر ؟

لا.. فأنا أرى أنها نوع أدبي قائم بذاته وليس شعرا على الإطلاق، إذ لا تتحقق فيه خاصية أساسية نجدها في أشعار كل لغات العالم، ألا وهي الإيقاع الموسيقي الذي نسميه «البحر».

ولا يمكن القول بأن قصيدة النثر لها إيقاعها، لأن ما يسمى بالإيقاع الداخلي متوافر في الشعر الخالص أيضا، فضلا عن ذلك الإيقاع الموسيقي الذي يمثل الإطار العام، والذي يمكن ضبطه والقياس عليه.

يرى المدافعون عن «قصيدة النثر» أن لها جذورا في التراث العربي، وبالتالي فهي لا تفتقر إلى الأصالة؟

كان هناك - قبل الإسلام - ما يسمى «سجع الكهان» الذي يحتوي بعض نماذج عالية الفنية تحتوي على تلك الخصائص الثلاث المشار إليها. ومعلوم أن لعبدالمطلب جد النبي ﷺ نماذج من هذا القبيل. ثم تطورت هذه النماذج الشعرية، ليصبح هناك ما يطلق عليه «النثر الفني» كما عرفناه عند عبدالحميد الكاتب والجاحظ والتوحيدي، وبلغ هذا النوع الأدبي ذروته عند محمد بن عبد الجبار النفري في كتابه (المواقف) و (المخاطبات) وكتابات هذا الأخير أجمل من بعض الشعر الخالص.

ويضيف د. فتح الباب : ولكن ليس معنى كل ذلك أن «قصيدة النثر» الحديثة ذات أصالة، فهي شيء مختلف في التوجه عما سبقها، خاصة في مدى قربها أو بعدها من مسمى الشعر ذاته.

العبرة بماذا إذن، في الشعر من عدمه؟

حقيقة الأمر أن الأوراق قد اختلطت، وأعني أوراق الشعر طبعا، فثمة مدى شعري يتمثل في إبداع الموهوبين حقا، وجزء يقوده الأدعياء أو الذين فشلوا في كتابة رؤاهم شعرا، فظنوا النثر أسهل ليكتبوا فيه من باب الاستسهال فقط، في حين أن العكس هو الصحيح، فالنثر الشعري أصعب من الشعر.

❖ **أما الناقد المعروف د. حلمي محمد القاعود** فيقدم رؤية تحليلية عن «قصيدة النثر» ويوضح خطورة الأهداف المعلنة وغير المعلنة لدعاة «قصيدة النثر»، فبعد استعراضه لأهم مسوغات وجود قصيدة النثر لديهم والتي تتمثل في :

- الحل النهائي لما يسمى أزمة الشعر العربي.
- هدم وكسر الثوابت وإبادة البناء الشعري الهش.
- النص الديني سبب كارثة الشعر العربي، لأنه صانع الثقافة السمعية.
- قصيدة النثر تصنع قانونها ونظامها وشكلها.

يقول : « إذا كانت قصيدة النثر في الغرب مقبولة لأسباب ثقافية وبيئية، ووجدت من ينظر لها ويقعد، فإنها في البلاد العربية مست عناصر مهمة في تشكيل الهوية العربية الإسلامية،وأوحت بفكرة خطيرة حول «القرآن الكريم»، تسمح بالقول عنه : إنه شعر، «وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون».

كما ينقل آراء عدد من النقاد وشعراء الحداثة في قصيدة النثر مثل الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي الذي يقول : «إنني واحد من كثيرين في العالم لا يمكنهم أن يتذوقوا الشعر تذوقا صحيحا إذا كان خاليا من الوزن » لكن هؤلاء جميعا - وأنا منهم - لا يستطيعون في الوقت ذاته أن ينكروا وجود شكل شعري يسمى قصيدة النثر».

وحول سؤال : هل يمكن أن تدخل قصيدة النثر في إطار الأدب الإسلامي أم لا ؟

يقول د. حلمي القاعود « فلنتفق أولا أنه لا توجد قصيدة في النثر، ولا نثر في الشعر، كل منهما جنس له خصائصه ومميزاته والخلط بينهما يصنع شكلا هجينا. إذا أراد كاتب أو أديب إسلامي أن يكثف نثره ويشحنه بطاقات من المجاز والتصوير والتناغم اللفظي فليفعل، وليطلق عليه مصطلحا آخر غير مصطلح الشعر...».

وينفي د. القاعود الجمود عن الأدب الإسلامي فيقول :

« في تصوري أن مهمة الأدب الإسلامي وهي مهمة تجديدية بالدرجة الأولى تتمثل في استعادة القوة والهيمنة للشكل الشعري الموروث الذي يعتمد العروض والقافية أو يحافظ على موسيقى الشعر بدرجة ما (الشعر الحر أو التفعيلي) من خلال النماذج الجيدة والمتميزة..».

❖ **ويرى الشاعر المعروف د. مأمون فريز جرار** أن مسمى قصيدة النثر يشكل تناقضا، ويشترط الموسيقى لأي مسمى شعري، ويبدأ حديثه عن شعر التفعيلة فيقول:

الناقد د. حلمي القاعود : قصيدة النثر أوحت بفكرة خطيرة حول «القرآن الكريم» تسمح بالقول عنه : إنه شعر، ومهمة الأدب الإسلامي تجديدية بالدرجة الأولى.

الشاعر د. مأمون جرار: هذا المصطلح يحمل التناقض ويدل على العجز، يحمل التناقض لأنه يربط بين مصطلحين متناقضين (قصيدة) التي تدل على الشعر، و (النثر) الذي يدل على الكلام غير الموزون أو المقفى.

الناقد د. حسن الهويمل

■ **الإشكالية في ظاهرة الكتابة التي يتعمد البعض من خلالها خلط الفنون وإلغاء الأنواع الإبداعية والقول بأن الشعر لا ضابط له، وأن الوزن والقافية لا أهمية لهما قول غير سديد.**

« وأنا ممن يقبل شعر التفعيلة بل جزء كبير من شعري سار على هذا اللون من الشعر. وقبولي له مبني على فهمي للشعر، فالشعر موسيقى، والشعر إنشاد، وإذا خلا الشعر من الموسيقى فهو نثر، قد يكون نثرا جميلا رائعا محلقا، ولكنه إن خلا من الموسيقى فليس بشعر ولا يمتلك تأشيرة الدخول إلى عالم الشعر.

من هذا الفهم أنطلق إلى ما يسمى قصيدة النثر، هذا المصطلح الذي يحمل التناقض ويدل على العجز، إنه يحمل التناقض لأنه يربط بين مصطلحين متناقضين : قصيدة (التي تدل على الشعر)، والنثر (الذي يدل على كلام غير موزون أو مقفى).

إن اختراع هذا المصطلح قصيدة النثر دلالة على العجز عن امتلاك أدوات الشعر، والرغبة في نيل شرفه، فمن لا يمتلك الأذن الموسيقية والقدرة الموسيقية فليس بشاعر.

ليكن ما يسمى قصيدة النثر : خاطرة، أو ليسمِّه أصحابه (نثيرة) على وزن قصيدة، وليضعوا لهذه النثيرة من المواصفات الفنية ما شاؤوا.

أما أن يكون قصيدة نثر فذلك ما لا أرتضيه ولا أقره، وأظن أنه لن يجد من القبول ما وجده شعر التفعيلة لافتقاره صفة مهمة هي الموسيقى. ورحم الله ذلك الناقد الذي استمع إلى شعر موزون مقفى، لكنه لم يمتلك روح الشعر من صوره محلقة وعاطفة حية، فقال لصاحب ذلك الشعر:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع. ويدعو د. مأمون جرار إلى الاستقلال بالشخصية الأدبية والتخلص من التبعية الغربية قائلا : « وإن من المهم ألا نكون تبعا لما يجد في الأدب الغربي من البدع التي لا توافق أدبنا وذوقنا، بل هي دخيلة علينا كما دخل حياتنا كثيرمن أنماط اللباس والطعام وألوان الحياة المختلفة ».

❖ **ونختم برأي الناقد الكبير د.حسن بن فهد الهويمل** وهو من الرافضين لقصيدة النثر ليقدم مبرراته قائلا:

الشعر معروف والنثر معروف، والخلط بينهما بدعة حديثة شغلت المشهد بفضول القول، ولقد كتبت وحاضرت، وقلت ما أرى، وقصيدة النثر مصطلح مركب يناقض ذاته «فالقصيد» غير «النثر» والجمع بينهما كالجمع بين الماء والنار، ولما كان الشعر بناء لغويا فإن علينا مراعاة هذا الاختلاف وإن لم نفعل فما قلنا الشعر، وإن قال به أساطين نكصوا على أعقابهم بعدما أفسدوه. وقصيدة النثر بناء لغوي لا اعتراض عليه وإنما، الاعتراض على إطلاق التسمية، وليس هناك ما يمنع من اعتبار هذا اللون من الكتابة من النثر الفني، ثم إنها لم تكن مبادرة عربية ولا استجابة لحاجة الأمة، وكل مجلوب يصدق عليه قول الشاعر:

«حسن الحضارة مجلوب بتطرية»

ويستطرد الدكتور حسن فيقول : والإشكالية في ظاهرة الكتابة التي يتعمد البعض من خلالها خلط الفنون وإلغاء الأنواع الإبداعية، والقول إن الشعر لا ضابط له وأن الوزن والقافية لا أهمية لهما قول غير سديد، فالشعر جرس وإيقاع وانزياح وإيجاز ومجاز، والشعر لا يقوله إلا شاعر، ومن ثم فإن الوزن والقافية لا يحققانه، وإنما الذي يحققه الشاعر الموهوب، وبالجملة فإن الشعر إشكالية لمراوغته وعدم إذعانه للتحديد، ومع المراوغة يظل مستقرا في الأذهان، فهو من المعهودات الذهنية التي لا تعرف. ■